« لكننا لم نعد نقبل الامور كما نراها ، هذا ما قاله عدنان لبرايان اثناء احدى جولاتنا في السوق ، فان عدنان يريد برايان فلنت ان يتعرف الى بغداد من الداخل . لا مدينتك الخيالية التي تغص بالشيوخ والحريم ، بل المدينة الحقيقية ، الفقيرة ، المليئة بالناس الذين يجوعون ويحبون ويكرهون ويقتلون ، انت تعرف ما عانيناه خلال قرون . **قرن** هذا هو مفهومنا لأصغر وحدات الزمن ، كافحنا خلال سبعمائة سنة ارضا غير مُعطاء . نعم عندنا نهران عظيمان ، ولكن شبكات الري حطمتها الموجات المتعاقبة من الغزاة حتى انهكت ارضنا ، وتعلم شعبنا ان يقبل عبودية لا نهاية لها . جاءنا حكام من الخارج مع حشودهم ، واكتسحوا البلد ، جلبوا معهم خيرا قليلا وحيوية اقل ، وفي النهاية اوشكت حتى المفاخر التاريخية ان تمحى ، وتقلصت مدينة العباسيين حتى اضحت مكانا قميئا تخنقه من كل انحائه الاجمات التي لا تؤوي سوى الافاعي واللصوص » (ص ٧٠ ــ ٧١) .

وجميل فران يقول عن عدنان **الذي يقول الكلام السابق** : « انه يمثل خمسين مليونا من العرب » (ص ــ ١٦٨) وهو عدد العرب وقت احداث الرواية .

انه جيل جديد يريد حياة جديدة . وثمة تحرك اجتماعي جديد ، فكيف حصل هذا التحرك وكيف تمثل في الرواية بحركة الشخصيات والاحداث ، بحركة المعسكرين المتقابلين المتداخلين في نسيج الرواية ، وبعبارة ثانية : ما هو الاصل والاساس الاجتماعي والموضوعي الذي صدرت عنه الرواية فكانت احد وجوهه واحد تعبيراته ، وكانت جوهره : اي جوهر الاساس الاجتماعي ؟

في الرواية يحدد الخلاف بين المعسكرين وكأنه « صراع » بين الشرق والغرب ، بين عقلية شرقية تقليدية متخلفة وعقلية غربية جديدة متقدمة ، أو بين نمطي حياة : المعسكر الاول يتهم الثاني بأنه يريد جلب قيم الغرب ونمط حياته لتحطيم الشرق ، والمعسكر الثاني يرى فساد الحياة الشرقية ويريد تغييرها ، وعبر هذه الناحية تقارب الرواية مشكلة من اهم مشكلات الحياة العربية الجديدة ومن اهم مشكلات الادب العربي الحديث ، وهي مشكلة لقاء الشرق بالغرب ، لقاء نمط الانتاج ما قبل الرأسمالي بنمط الانتاج الرأسمالي ، او بالغرب الامبريالي ، لكن نمط الشخصيات وموقعها الاجتماعي ــ ضمن الرواية ــ والمرحلة التاريخية التي صدرت فيها وعنها هذه الرواية تجعل اجابتها ــ اجابة الرواية ــ محصورة بالحدود الواردة مسبقا ، وهي حدود الخمسينات ومرحلة صعود البرجوازية الصغيرة وسيطرتها فيما بعد .

ان « صراع » الشرق والغرب يتمظهر في هذه الرواية كصراع بين قيم وتفكير المعسكرين السابقين ، بين قيم القديم وعقليته ونمط حياته ، وبين قيم الجديد وتفكيره وعقليته ونمط حياته . والذي يحمل الجديد او « الغرب » هو البرجوازية المتعلمة التي تعود بأصولها سواء للاقطاع نفسه او لفئات من الفلاحين والبرجوازية المدينية التي تكونت آنذاك ، لكن ، وعلى الرغم من ان الموضوع يبدو « صراعا » ــ وهو في المجتمع العربي صراع حقيقي ولكن ليس في الحدود التي تعينها الرواية ــ فان الحقيقة هي ان شخصيات الرواية متماثلة جوهريا بحيث ينتفي الصراع وفكرته : فتطرف « توفيق خلف » الرجعي هو البعد الآخر لتطرف « عدنان » السوريالي التدميري ، و « عدنان » نفسه « ابن اخ » « عماد النفوي » ، والشخصيات